علم الكلام تاريخ ثقافة

د. ايت احمد نور الدين الجزائر

مقدمة :

العرب في الجاهلية :

خرج العرب من شبه الجزيرة يحملون بعض عناصر بناء الثقافة منها: اللغة والأخلاق النبيلة. أما اللغة العربية، فقد تطورت وارتقت في الفترة الجاهلية السابقة لظهور الإسلام، واستعملها العرب للكشف عن مقدرة رائعة في التعبير، وبرهنت لديهم على أنها أحسن مترجم للفكر ولمظاهر حياتهم.

ولولا أن المجال لا يتسع لَذكرنا نماذج من هذا الشعر الجاهلي الذي عبّر عن كل أغراض الحياة من حماس وفخر ورثاء ومدح، بل قد تعاطى الجاهلي مع قضايا فلسفية تنمّ عن قدرة وفعالية عميقة وخيال واسع، عبّر عن موقف فلسفي تجاه القضايا الإنسانية والاجتماعية.

فهذا زهير بن أبي سلمى بفطرته يقول:

ألا ليت شِعري: هل يرى الناس ما أرى مِن الأمر أو يبدو لهم ما بدا لِيا؟

بدا لِيَ أن الناس تفنى نفوسهم وأموالهم، ولا أرى الدّهر فانيا

يثبت زهير هنا، أن المعرفة ذاتية تختلف من فرد إلى آخر وهو ذات الموقف الذي سجّلته السفوسطائية قديما بشعارها: (الإنسان مقياس الأشياء جميعا)،كما يرى أن كل شيء يفنى أما الزّمان فتيار متواصل لا يحلّ عليه الزوال وعبّر عن هذا الموقف الدهريون 1* الذين قال عنهم المولى جَلَّ وعلا: " **وَقَالُوْا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الْدُّنْيَا نَمُوْتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الْدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّوْنَ.** "[2]

---

*[1] الدّهريون : الدّهرية اعتقاد فكري ظهر في فترة ما قبل الإسلام أو الجاهلية ويشتق المصّطلح من الدّهر إذ تعتبر الزمان أو الدّهر السبب الأول للوجود وأنّه غير مخلوق ولا نهائي وتعتبر الدّهرية أن المادّة لا فناء لها وهي الأقرب إلى الإلحادية.

[2] ـ سورة الجاثية، الآية: 24.

كما ترك العرب إلى جانب الشعر الموزون، لونا ثقافيا آخر يُعبر عنتجربة طويلة بالحياة تعكس نظرة عميقة، هذا اللون الثقافي هو الأمثالُ والحِكَمُ، كقول العرب: يداك أوكتا وفوك نفخ.جزاء سنّمار.

ولكن هذه الأمثال والحِكَم لا تتطلّب أي تأمل أو تحليل وتركيب.

قريش والإسلام:

العامل الآخر الذي ظهر عند العرب (قريش، اليهود،)هو الدّين الإسلامي الجديد بما حمله من معارف معجِّزة للعرب ولغيرهم. فتعرّض القرآن الكريم لأمور غيبية كثيرة ورَدّ على كل الفرق الضّالة والمكذّبة للدين الجديد، وأَمَدَّ - بهذه الصورة - المسلمين برصيد معرفي هام كان دافعا وراء تطوّرهم.

فقد ردّ القرآن الكريم بالحُجة على من يُؤمِن بإلهين كالفرس وأثبت فساد هذا الموقف."فلقد عبد الفرس منذ القدم الظواهر الطبيعية واشتهر عندهم إلهان اثنان هما: أهورامزداوأهريمان، ورمزوا لأحدهما بالنور والثاني بالظلمة وهما في نزاع دائم، لأن كل ما في الطبيعة حسب رأيهم إنما هو نزاع بين قوتين قوة الشر وقوة الخير، فرمزوا للخير بالنور وللشر بالظلام ودعوا إلى تأييد إله الخير ضد إله الشر وأشعلوا النار الدائمة في معابدهم لأنها رمز الضوء أو رمز آلهة الخير ومن هنا نشأت عبادة النّار عندهم"[3].

وقد ردّ القرآن الكريم على أصحاب هذه الديانة مفندا ومتحديا: "**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا.**"[4]

وردّ القرآن الكريم على من ألّه عيسى ابن مريم فقال :"**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.**"[5]

هذا بالنّسبة للأمور العقائدية، أمّا على مستوى الحياة الاجتماعية والسياسية، فلم يقتصر فضل الإسلام في توحيد العرب على الجزيرة فقط، بل أنقذ العرب في

---

[3] أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ط 3، 1997، ص 508.

[4] سورة الأنبياء، الآية: 22.

[5] سورة آل عمران، الآية: 59.

المناطق الأخرى من سيطرة القوى الأجنبية. "فحطّم وإلى الأبد الإمبراطورية الساسانية الفارسية التي كانت تهيمن على العراق واليمن وردّ الروم البيزنطيين من سوريا ومصر وشمال إفريقيا، فحقق بذلك وحدة الناطقين باللغة العربية لأول مرة، ورسّخ وجودهم من خلال الهجرات التي انطلقت شرقا وغربا حملت معها المجاهدين وأُسَرِهم"[6]. فانتشر الإسلام وعمَّ أرجاء الأمم والدول.

قضاءقريش:

لم تكن للعرب قبل الإسلام سُلطة تشريعية تضع القوانين، بل حكمتهم العادات والتقاليد التي تعارفوا عليها،" فقد وُجد عند العرب قديما ما يُعرف بالحكومة، وهي عبارة عن مجلس قضائي مهمته تقدير الضرر وتقدير التعويض عنه، وكان ينوب عنهم من أصحاب الحكومة في قريش. وكانوا يفصلون فيما يقع بين القرشيين والعرب الوافدة على مكة من خصومات "[7].

لكن هذا المجلس لم يكن يعمل بصورة حيادية أو موضوعية اتجاه المتخاصمين، خصوصا عند ما يكون المعتدي الظالم من أعيان قريش وكُبرائها، فكانوا إذا سرق الفقير أقاموا عليه الحد، وإن سرق الغني خلوا سبيله.

بالفعل لقد كانت للعرب بعض الأخلاق العالية على المستوى الفردي أو الجماعي، لكن كانت هناك كثير من التصرفات تخالف الطبيعة أو الواجب، وكان لابد من محاربتها والقضاء عليها واستبدالها بأفضل منها.

ظهور الإسلام:

إذن بعد أن كانت العرب قبائل متصارعة في الجاهلية، وحّدها الإسلام تحت راية القرآن الكريم بمولد الرسول الكريم **محمد بن عبد الله** صلى الله عليه وسلَّمَ في مكة عام الفيل، وهي السَنة التي غزا فيها أبرهة الحبشي مكة المُكرمة بهدف هدمِ

---

[6] بشير رمضان التليسي، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار المدار الإسلامي، طرابلس، ط2، 2004، ص 53.

7- المرجع نفسه، ص 122.

الكعبة الشريفة عام خمسمائة وسبعون 570 م، لكن الله عزَّ وجلَّ أباد أبرهة وجنوده.

وُلد الرسول (ص) عام خمسمائة وسبعون 570م، وبقي بين قومه أربعون عاما، يعيش معهم بما استحسنه من الأخلاق المقبولة التي وجدها لديهم كالشجاعة والمروءة والوفاء وغيرها، ويُنكر عليهم البعض الآخر منها خصوصا عبادة الأوثان والأصنام وشُرب الخمر ووأد البنات وغيرها، ولم يرَ منه مجتمعه إلا الصفات الأخلاقية العالية كالأمانة والعفة والصدق، فاكتسب مكانة هامة بينهم.

بعد أربعين عاما من حياته، نزل جبريل عليه السلام بالوحي على محمد (ص) في غار حراء، يُكلفه بالدين الجديد: الإسلام أي الدعوة إلى الاعتقاد بإله واحد ونبذِ عبادة الشِرك والأوثان، ونشر عقيدة " **لا إله إلا الله، محمد رسول الله.**"

مرت الدعوة الإسلامية بمكة المكرمة بمرحلتين:

ـ المرحلة السِرية: ودامت ثلاث سنوات، وكانت الدعوة سرا، وما آمن معه إلا قليل.

ـ المرحلة العَلنية: أمر اللهُ تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلّم بأن يجهر بالدعوة للجميع، بقوله :**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعرِضْ عَنِ اَلْمُشْرِكِينَ** " [8] فبدأ بقريش، وتعرّض ومَن معه خلالها لشتى أساليب الرفض فبدأوا بإغرائه بالمال والسلطان فقالوا له : إن أردت المال جمعنا لك من أموالنا فتصير الأغنى، وإن أردت الجاه والسلطان، ملَّكناك علينا، فَردَّ صلى الله عليه وسلّم على عمّه(مبعوث قريش) بمقولته الشهيرة: يا عماه، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الدين، ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه.

، ثم انتقلوا لتعذيب أصحابه، ومحاربته بالقوة والسلاح. ودامت هذه المرحلة عشر سنين، لتنتهي فترة الدعوة الإسلامية في مكة وعُمرها ثلاثة عشر عاما.

[8]- سورة الحجر، الآية:94.

ـ الهجرة إلى يثرِب : (المدينة المنورة) أمر الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلّم بالهجرة إلى يثرب لاستكمال الدعوة الإسلامية، وبدأ بها التأريخ الهجري الإسلامي، ودامت هذه الفترة عشر سنوات.

بهذا تكون الدعوة الإسلامية قد استغرقت ثلاثة وعشرون عاما، واكتملت بنزول الآية الكريمة: " **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عليكُم نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسلام دينًا.** "[9]

طبيعة الإسلام:

أقرّ الإسلام خصوصيات ميّزته عن الديانات السماوية السابقة نتعرض لأهمها:

ـ جاء الإسلام ليهدم عقيدة الشرك التي كانت عليها قريش ويُرسخ عقيدة التوحيد وإعلاء مبدأ " **لا إله إلا الله**"، ونظرا لكون العقيدة الفاسدة التي طبعت قلوب القُرشيين والعرب عامة متجذرة وضاربة في أعماق التاريخ، فقد اكتفت الفترة المكية بهدمها، ثم بعد ذلك عندما صفَت نفوسهم وتوفرت التُربة الخِصبة، انتقلت الدعوة لتفاصيل ومبادئ الدين الجديد.

ـ الإسلام ليس دينا نظريا مجردا يفصل بين المبادئ والواقع، بل**دين حياة** عملية متغيرة. فكل التعاليم التي يتلقاها المُسلم، ينبغي عليه تطبيقها، وهكذا تهدف التعاليم الإسلامية لتربية الإنسان وجعله فردا صالحا، نافعا لمجتمعه من خلال القضاء التدريجي على روح الأنانية وحُب الذَّات إلى تمجيد الحياة الجماعية، وغرس روح التكافل والتضامن بين أفراد المجتمع الذي ينبغي أن يكون أفراده كالجسد الواحد أو البنيان المرصوص يشُّد بعضه بعضا. فليس المطلوب من المسلم الحقيقي أن يحشو ذهنه بمبادئ يلتزم بها أثناء مكوثه في المسجد، وعندما يغادره، ينساها ويتركها، وقد يطبق عكسها، أو يأتي أفعالا تُناقض المبادئ التي يؤمن بها، بل عليه البقاء على تلك الأخلاق في كامل حياته ما استطاع .

[9]- سورة المائدة، الآية :03.

ـ جاء الإسلام ليؤكد أن **العلاقة بين الله وعباده علاقة حرة مباشرة** ليس بينهما حجاب، فإذا أراد المخلوق الاتصال بخالقه، فعليه التوجه إليه بالدعوة والنية الخالصة، دون أن يُشرك في ذلك أحدا مهما كان. يقول الله سبحانه وتعالى: " **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِيْ عَنِّيْ فَإِنِّيْ قَرِيْبٌ أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِيْ إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيْبُوا لِي وَلْيُؤمِنُوا بِيْ لَعَلَّهُمْ يَرشُدُونَ**"[10] فالخط مفتوحٌ ومباشر بين الله وعباده على مدار الساعة، وهذا اختلاف جوهري بين الإسلام والمسيحية، حيث ادّعى رجال الكنيسة وكذبوا على مواطنيهم بأنهم الواسِطة بين الرب والبشر.

ـ أعلن الإسلام ورسّخ **مبدأ الشورى** وضرورة الاطلاع على آراء الغير(المتخصصين)، إن كان الأمر يتعلق بمسألة لم ينزل بشأنها نص قطعي، امتثالا لقوله تعالى: "**وَأَمرُهُمْ شُورَى بَيْنَهمْ**"[11]. وهذا يدل على أن اتخاذ القرارات يجب أن يوكل لذوي الاختصاص، ففي شأن الحرب يجب أن نستشير رجالا لهم خِبرة بالحرب (الخدعة، المكيدة، الدهاء...) وفي شأن البِناء و توسيع المدينة نستشير البنائين المَهرة وهكذا، وبالنسبة لكيفية تسيير الدولة فيما بعد وسنِّ القوانين، فينبغي الرجوع لجماعة من العُقلاء والحكماء، يتداولون الأمر، يُدلون بالاقتراحات، تتصارع الأفكار لا الرجال، ثم يفرض الأفضل نفسه ويبقى، وأما الزبد فيذهب أدراج الرياح.(على أن ذوي الاختصاص هنا لا يعني استشارة صيادي السمك، أو مُربي الخيول).

تجدر الإشارة إلى أن الشريعة الإسلامية اكتفت بتحديد المبادئ والأصول الثابتة، أما إجراءات وتفاصيل تنفيذ هذا المبدأ وغيره، فقد تركته الشريعة للمسلمين أنفسهم ليُعمِلوا عقولهم ويجتهدوا ما استطاعوا، ثم يصل كل بلد منهم إلى أنسب الحلول التي توافق ظروفه وإمكاناته.

ـ بالنسبة للحُكم، فإن الله أمر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلّم بتبليغ شريعته وأن يُشرف بنفسه على تطبيقها، أي أن يكون عليه الصلاة والسلاّم هو في ذات الوقت: حاكم المسلمين ورئيسهم من جهة، والمُشرِّع أيضا. وهذا يعني بِلُغة العلوم السياسية:

---

[10]- سورة البقرة، الآية:186.

[11]- سورة الشورى، الآية:38.

أن تجتمع السُلطة التشريعية والتنفيذية في شخص الرسول صلى الله عليه وسلّم، بمعنى أن يكون رئيس تلك الجماعة من العُقلاء والحكماء التي أسلفنا ذكرها (كرئيس المجلس التشريعي لا عُضوا عاديا منه)، ورئيس المسلمين أي مَن يُصدر الأوامر. وهذا امتثال لقوله تعالى:**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا أَطِيعُوْا اَللهَ وَأَطِيعُوْا اَلرَّسُوْلَ وَأُوْلِي اَلأَمْرِ مِنْكُم فإنْ تَنَازَعْتُم فِيْ شَيْءٍ فَرُدّوْهُ إِلَى اَللهِ والرّسولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤمِنُونَ بِاللهِ وَاَليَوْمِ اَلآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأوِيْلاً."**[12]

تنص هذه الآية الكريمة بأن تجتمع السلطة التشريعية والتنفيذية في شخصِ الرسول عليه الصلاة والسلاّم، دون الخوف من عواقب هذا الاجتماع كأن يستبدَّ بهم مثلا، كما هو الحال في الدول الديمقراطية الغربية التي تعتمد الفصل بين السلطتين لتفادي استبداد مَن تجتمع في يده السلطتان، لكن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلّم، مَن خُلق الكون كله بسببه ولأجله، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أما المشكلة الأولى التي واجهها المسلمون مباشرة بعد وفاته صلى الله عليه وسلّم هي بلا شك: قضية مَن سيخلفه أي من سيأتي بعده ويتولى أمور وشؤون المسلمين؟ وسُميت هذه المعضلة **بقضية الخلافة.**

أ - نظام الخِلافة:

لغة : الخلافة في اللغة جاءت من المصدر خَلَفَ ، والخليفة :الذي يستخلف ممن قبله ومن يقوم مقام الذاهب ويسد مسدّه، وخَلَفَ فلانٌ فلانا إذا كان خليفته [13].

اصطلاحا :عرّفها الماوردي: "برئاسة الدولة الإسلامية أو رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن الرسول صلى الله عليه وسلّم "[14].

يُعرفها ابن خلدون فيقول:" حملُ الكافة على مُقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخرويـــة والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى

---

[12]- سورة النساء، الآية: 59.

[13]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة، بيروت، ج 9، 1956، ص 83.

[14]- الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية،مطبعة البابي،مصر،ط 3، 1973،ص5.

اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي (الخلافة) في الحقيقة نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به "[15].

والمقصود هنا أن يتدبّر الناس بالرجوع إلى الضوابط الشرعية الآتية من عند الله، لا الجهود البشرية أو العقلية، لأن إعمال العقل وحده دون الاستعانة بالنظر الشرعي مذموم لأنه نظر بغير نور الله:" **وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اَللَّهُ لَهُ نُوْرًا فَمَا لَهُ مِنْ نُوْرٍ**"[16]، فالشارع وحده أعرف بما ينفع الناس ويصلح لحياتهم الدنيوية وكذا الآخرة، ولا علم للبشر بأمور الغيب وما ينتظرهم في آخرتهم لأن أعمال الدنيا كلها راجعة عليهم في آخرتهم.

الخِلافة نيابة عن صاحب الشرع، ومَن صاحبُ الشرع ؟ صاحب الشرع هو:**الله.**والله كلّف محمدا صلى الله عليه وسلّم بتبليغ الشريعة التي يريدها لعباده، لكن محمدا صلوات الله وسلامه عليه قد مات.إذنفالمشكلة العملية الآن هي: مَن الأنسب مِن المسلمين في النيابة عمّن اختاره الله تعالى ليُبلِّغ الرسالة.؟

طريقة تنصيب الخليفة:

-1 طريقة الانتخاب الاستشاري:

إن التاريخ يُخبرنا أن المسلمين اختاروا واختلفوا في تحديد الشخص الأنسب الذي يُعوِض مكان الرسول صلى الله عليه وسلّم، والحقيقة أن لا شخص بإمكانه فِعلُ ذلك ولا هو في مستواه، لكن المسلمين أو بالأحرى الدولة الإسلامية الفتية التي وضع الرسول صلى الله عليه وسلّم أُسسها، لا يمكنها أن تظل دون قائد.!

إذن، فقد كانت مسألة تحديد الخليفة أمرا مستعجلا بالنظر لما كانت تتعرض له الدولة مِن مكائد وقلاقل، وهي في بداية تكوينها، لذا فقد سارع كبار المسلمين مِن الطرفين: الأنصار والمهاجرين إلى التفكير في تحديد الرجل المناسب فاجتمعوا في مكانٍ يُسمَّى: **سقيفة بني ساعِدة.**

---

[15]- ابن خلدون،المقدمة،الدار التونسية للنشر- المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج1، 1984،ص 244.

[16]- سورة النور، الآية: 40.

لم يَطُل النقاش حتى أجمع الكل على أن الشخص المناسب الذي – لا نقول يُعوِض الرسول صلى الله عليه وسلّم، فلا أحد يعوضه لكن- يُعتبر الأفضل في المجتمع والأمة، ممن تبقى بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، هذا الشخص كان **أبو بكر الصديق** (رضي الله عنه)، وكان هو بالضبط لعدة اعتبارات:

ـ لقد جاء ذكره في القرآن الكريم:" **ثانيَ اثنيْن إذ هُما فِيْ الغَارِ إذْ يقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا.**"[17]

ـ وقوله تعالى أيضا:" **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِيْ يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّ.** "[18]فالآيتاننزلتا في حق أبي بكر الذي عُرف أنه أول من بذل ماله لنُصرة الإسلام دون حساب.(إذ أحضر كل ماله، فقال له صاحبه: ماذا تركت لأهلك يا أبا بكر؟، فقال: يا رسول الله، لقد تركت لهم الله ورسوله).

كما أسلم على يديه خمسة من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة وهم: عثمان بن عفان، الزبير بن العّوام، سعد بن أبي وقاص، طلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف، كما اشترى حرية العديد من الصحابة وأعتقهم لوجه الله، فهؤلاء جميعا وأعمالهم حسنات في ميزان أبي بكر (رضي الله عنه).

هو أحبُّ الناس من الرجال للرسول صلى الله عليه وسلّم،ففي حديث عمر بن العاص عندما خرج على رأس جيش ذات السلاسل ،فسأله ابن العاص عن أحبِّ الناس أليه، فقال: عائشة (رضي الله عنها) قال ثم مَن مِن الرجال؟ فقال عليه الصلاة والسلام أبوها.

خلّفه رسول الله صلى الله عليه وسلّم في الصلاة أيام مرضه، فصار إماما للمسلمين في الصلاة.

شهِد مع النبي عليه الصلاة والسلام جميع الغزوات.

المُهم أنه وقع الاتفاق على أحقّية ومشروعية رئاسة أبي بكر الصديق للمسلمين، باختيار وتعيينٍ منهم، ولم يُسرع رضي الله عنه أويفرض نفسه عليهم، وهذا دليل

---

[17]- سورة التوبة، الآية: 40.

[18]- سورة الليل، الآيتان: 17،18.

على أن الرئاسة مسؤولية كبرى، واستمع لما قاله أبو بكر الصديق فور تعيينه واليا أو مسؤولا أول على المسلمين:

" أيها الناس، أما بعد، فقد وُليت عليكم، ولست بخيِّركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى آخذ الحق له. والقوي ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه. أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإن عصيت، فلا طاعةَ لي عليكم"[19].

بتحليل بسيط وسريع لهذه الخطبة، يمكننا استنتاج لائحة قوانين تُحدد صلاحيات حاكم المسلمين:

ـ المسلمون هُم مَن يختار الحاكم، ولا يفرض أو حتى يُرشح نفسه (وُليت عليكم).

ـ تواضُع الحاكم لمرتبة المحكومين ولا يُفضِّل نفسه (ولست بخيِّركم) .

ـ اعتراف الحاكم بإمكانية وُقوعه في الخطإ، وتصريحه بقَبول التقويم مِن قِبلهم وانتقادهم لقراراته (إن أسأت فقومُوني).

ـ الناس سواسية عنده، لا يتفاضلون بالقوة أو الضعف أو المكانة أو النسب.

ـ سُلطة الحاكم ليست مُطلقة، بل مقيدة بما نزل من الوحي والقوانين وبسُّنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلّم، كما أن طاعة الحاكم مشروطة بطاعته هو أولا للشريعة.

ـ إمكانية عزل المحكومين للحاكم وانتزاع السلطة التي أُوكلت إليه، إذا خرج عن إطار الشرع (فإن عصيتُ ، فلا طاعةَ لي عليكم)، وهذه الخاصية لم تُعرف لدى أي أمة.

ملاحظة:

- ماذا يمكن أن نزيد على هذا الكلام ؟ ! كل هذه الصفات والحِرص على تطبيق الشريعة كما تركها صلى الله عليه وسلم، وتقول: لستَ بخيِّرنا يا أبا بكر. ! تمثل هذه الخُطبة دستور الحاكم الذي يتقيد بتعاليم الشريعة الإسلامية وتأكيد مبدإ الديمقراطية، واعتراف بسيادة الشعب كمصدر للسلطة.

---

[19]- شوقي أبو خليل ونزار أباضة،لوحات مضيئة في الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر،دمشق،2007، ص،31.

- 2 طريقة الترشيح الاستشاري :

إعمالا بمبدإ الشورى، أخذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أيام مرضه في استشارة كبار الصحابة لتعيين خليفته، فلم يوصِ أو يعين أحدا من عائلته بل اختار أكفأ الناس لها وأعدلهم، ووافق الجميع على اختيار أبي بكرٍ لعمرَ بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.

وجاء كتاب عهد أبي بكر لعمر، هذا نصه:" بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر الصديق بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجا منها، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها: إني استخلفت عليكم بعهدي عمر بن الخطاب، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت ولا أعلم الغيب،(**وَسَيَعْلَمِ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا أَيَ مُنْقَلَبِيَنْقَلِبُوْنَ**) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. " [20]

إذا حللنا خطاب أبي بكر، نجده يتضمن العناصر التالية:

ـ اختيار الخليفة لِمن سيخلفه، وهذا بمفرده له وزنه، وهو ليس نابعا من فراغ، بل أساس هذا الاختيار، معرفة أبي بكر الطويلة بعمر بن الخطاب، فكانا يتسابقان إلى الخير والتاريخ شاهد على ذلك (فإن عدل فذلك ظني به و علمي فيه).

ـ اختيار الخليفة وتزكيته لعُمر ليس قرارا سماويا لا رجعة فيه، بل هو مجرد اجتهاد بشري حسن القصد والنية، مُدة صلاحيته بقاء المُختار على سيرته. قال الخليفة:(إن بدّل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت ولا أعلم الغيب).

ـ حمّل الخليفةُ الرعيةَ مسؤولية سلوك الحاكم الجديد مستقبلا، بمعنى أن أبا بكر لو علِم أن عمر بن الخطاب بعد تعيينه سيبدّله المنصب ويخرج عن الطريق السليم، كأنه يقول لهم: لو رأيته يفعل ذلك لعزلتُه (لا أعلم الغيب)، وهذا معناه أيضا: إنه لو رأيتموه يفعل ذلك، فاعزلوه.

ـ استشار أبو بكر الصديق كبار الصحابة في مضمون قراره.

ـ وافق الجميع على اختيار أبي بكر.

---

[20]- صالح فركوس، تاريخ النظم القانونية والإسلامية،دار العلوم، عنابة، د ط،2001، ص 56.

ـ **3 طريقة الانتخاب الاستشاري:** عندما اختار أبو بكر الصديق عمر ابن الخطاب وحده ورشحه لهذا المنصب، فذلك لأفضليته على المتبقين من المسلمين، لكن عندما جاء دور عمر لاختيار خليفته، بعد أن طعنه أبو لؤلؤة الفارسي انتقاما من هزيمة قومه على يد المسلمين، وجد أن هناك مجموعة من المسلمين تتوفّر فيهم الشروط نفسها، وهم جميعا يصلحون لهذه المسؤولية الجسيمة.

اختار عمر ستة من الصحابة الذين تتوفر فيهم شروط قيادة الأمة وكأنه "مجلس شورى يتكون من :علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، سعد بن أبي وقاس، عبد الرحمن بن عوف، طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، كما عيّن عمرُ ابنه عبد الله شاهدا ورقيبا يُستشار عند الحاجة وليس له حق التصويت، وأن تكون مدة المجلس ثلاثة أيام، وإذا تساوت الأصوات أي لكل مرشح ثلاثة أصوات فيُنتخب المرشَح الذي يكون عبد الرحمن بن عوف إلى جانبه"[21].

فطلب منهم عمر بن الخطاب أن يختاروا رجلا منهم بعد أن خطب فيهم بقوله: "إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو عنكم راضٍ، إني لا أخاف الناس إن استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها فتشاوروا واختاروا رجلا منكم "[22].

إنّ اختيار عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه لِمن يخلفه كذلك لم يخرج عن أصول التعيين الديمقراطي العادل المبني على الحوار والتشاور، فهو عندما اختار هذه الجماعة وكلفها باختيار أحدها ، فقد اختار أفضل من تبقى من المسلمين، وهؤلاء بالمناسبة مِن العشرة المبشرين بالجنة.

ووقع الاختيار على عثمان بن عفان رضي الله عنه.

يقول ابن خلدون:" وكذلك عهِد عُمرُ في الشورى إلى الستة: بقية العشرة، وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين ففوض بعضهم إلى بعض، حتى أفضى ذلك إلى عبد

---

[21]- بشير رمضان التليسي، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 68 .

[22]- صالح فركوس، تاريخ النظم القانونية والإسلامية، مرجع سابق ، ص 57 .

الرحمن بن عوف، فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلي، وآثر عثمانُ بالبيعة على ذلك لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعن دون اجتهاده، فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته. والملأ من الصحابة حاضرون للأولى والثانية، ولم ينكره واحد منهم. فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته، والاجماع حجة كما عرف."[23]

تحليل النص:

ـ الشورى إلى الستة: يعني أن عمرَ بن الخطاب لم يستشر الأمة جمعاء بل استشار أصحاب الحل والعقد، وقلنا سابقا أنه لو أردنا تشييد بعض العمران، استشرنا البنائين وهكذا.

ـ بقية العشرة: أخبر عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن أسماء عشرة من الصحابة الأكثر فضلاً وخيرةً بأنهم في الجنة، فقال: أبو بكر في الجنة، عمر في الجنة، عثمان في الجنة، علي في الجنة، طلحة في الجنة، الزبير في الجنة، عبد الرحمن بن عوف في الجنة، سعد بن أبي وقاس في الجنة، سعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة، فهؤلاء الذين اختار عمر استشارتهم، هم أخيار القوم بشهادة الرسول عليه الصلاة والسّلام.

ـ موافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين: يعني أن عثمان رضي الله عنه لم يخالف أبا بكر وعمر ابن الخطاب أثناء حكمهما.

ـ الملأ من الصحابة حاضرون للأولى والثانية: يعني أن هؤلاء الصحابة شهدوا ولاية أبي بكر وعمر.

ـ عبد الرحمن بن عوف: كان عمر يرجع إليه في أمور كثيرة، وارتضاه الصحابة جميعا حَكَما بينهم لاختيار خليفة عمر.

ـ 4 طريقة المبايعة الشعبية:

[23]- المقدمة، ج 1، مرجع سابق، ص 264.

تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة عن عمْرٍ تجاوز السبعين، وعُرف عنه اللين والتسامح في إدارة الأمور، عكس سلفه، واستمرت ولايته اثني عشر عاما، واستغل بعض أفراد عائلته من الأمويين هذه القرابة واستفادوا من بعض الامتيازات فأثار ذلك غضب بعض المسلمين.

في هذه الفترة، بدأت بعض الفرق السياسية والفكرية تنشط وتُحرِّض الناس للثورة والخروج على الخليفة، فنشبت اضطرابات خطيرة وصلت حد اقتتال المسلمين فيما بينهم، ولم ينجُ حتى الخليفة منها حيث قُتِل مع نهاية عام 35 ه.

إذن قُتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه **غدرا**، ولم تكن له فرصة تعيين من يخلفه، فنهض المسلمون في هبة جماهيرية عارمة ينادون بالحكم لعلي بن أبي طالب.

طالب المسلمون بالحكم لعلي كرم الله وجهه، لأنه – في نظرهم – أحق الناس به ضمن جماعة المجلس الذي رشحه عُمر بن الخطاب، فبالنظر للقرابة التي تربط عليا بالرسول صلى الله عليه وسلّم يكون أحق الناس بالحكم هذا من جهة، ومن جهة أخرى يُعَدُّ علي بن أبي طالب أفضل المتبقين بعد أن مات من مات من العشرة.

لم تسلم فترة حكم علي بن أبي طالب من الفوضى والاضطرابات التي كانت قد بدأت قبل هذا التاريخ، وليس من المعقول أن تخمد في عُهدته، بل استمرت وتنامت إلى درجة أن قسّمت المسلمين إلى فِرق لكل منها قناعاتها وخلفياتها السياسية والاجتماعية والفكرية، وصلت هذه الخلافات إلى أن نشبت بينهم حروب أخطرها: معركة الجمل عام 36 ه ومعركة صفين عام 38 ه وكان من عواقب هذه الفِرق والخلافات أن يُقتل علي بن أبي طالب عام 40 للهجرة النبوية.

ثم " تولى الحسن بن علي الخلافة بعد مبايعة أنصار والده له في الكوفة، إلا أنه لم يستمر سوى ستة أشهر وتنازل عن الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان ليبدأ بذلك عهد جديد في تاريخ الخلافة الإسلامية وهو عهد الدولة الأموية "[24].

[24]- بشير رمضان التليسي، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص69.

ب – الحكم الوراثي: بتولي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه الحكم، انتهى نظام الخلافة الذي اعتمد مبدأ الشورى، وبدأت مرحلة جديدة من تاريخ الحكم الإسلامي،حيث أدخل الأمويون نظام التوريث في الحكم عن طريق الوصية أو العهد.

في هذه الوصية أو العهد " يُعين فيها الخليفة خليفته من أسرته، وهذه الوصية كانت تُعد بمثابة تصرف قانوني وسياسي رسمي، وعبارة عن سند مكتوب يحرره الخليفة أمام شهود ولا يحق لأحد ما عدا الخليفة نفسه أن يعدله أو يُلغيه. "[25]

وهكذا فقد استمر حكم الخلفاء الراشدين من عام 11 ه إلى 41 ه ثم بدأ الحكم الوراثي الأموي إلى غاية عام 132 ه، لتنتقل راية المسلمين إلى العباسيين من هذا العام إلى غاية 656 ه وهو العام الذي قضى فيه المغول على آخر خليفة عباسي.

لكنلا بد من كلمة حق في هذا الباب أي في الحكم الوراثي الأموي خاصة وهي أن الخليفة كان لا يأمر بالبيعة لأحد من أبنائه تحديدا إلا إذا كانت هناك داعية تدعو لذلك، كتغليب مصلحة أو توقع مفسدة، " ولا يُتهم الوالي في هذا الأمر إنْ عهِد إلى أبيه أو ابنه لأنه مأمون على النظر لهم في حياته، فأحرى أن لا يتحمل فيها تبعة بعد مماته"[26]. فالوازع الذي يدفع الخليفة وازع ديني محض ومصلحة المسلمين ليس إلا.

ونسوق هنا دليلا آخر عن توخي الخليفة الحذر ودراسة المحيط وتحليل كامل مُكوناته وعوامله التي تشكّله واتخاذ أفضل القرارات المدروسة، وهو عندما عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه إلى ابنه يزيد بالذات دون غيره، مع أن يزيدا لم يكن الفاضل خُلقا بين أبناء الخليفة، لكن – بالنظر لخصوصية المرحلة وخطورتها – كان الأفضل لما يتمتع به من قوة وتفضيل الجمهور له والقدرة على اتخاذ القرارات على الرغم من سوء خلقه وفسقه، ففضّله والدُه عن سائر أولاده. "والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه، إنما هو مراعاة المصلحة

[25]- صالح فركوس، تاريخ النظم القانونية والإسلامية، مرجع سابق، ص 57.
[26]- ابن خلدون، القدمة، مرجع سابق، ص 264.

في إجماع الناس عليه، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ، لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم ،فآثره بذلك دون غيره ممن يُظن أنه أولى بها، وعدِل إلى المفضول عن الفاضل حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع، ولا يُظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك "[27].

ثم إن يزيدا، وإن لم يكن فاضلا، فقد أنجب خالدا، وخالد بن يزيد بن معاوية هو حكيم آل مروان، وعندما آل إليه حكم المسلمين "أمر بعض علماء اليونان الذين كانوا في الاسكندرية بترجمة الأورجانون (أي مجموعة كتب أرسطو المنطقية) من اليونانية إلى العربية "[28]. فانظر بُعد النظر لمعاوية.

إذن فالخليفة عندما يعهد بالحكم لفرد ما، فذلك لمبرر ديني شرعي وهو تغليب مصلحة المسلمين ، والحفاظ على الجماعة ونبذ الفرقة والاختلاف، ولم يكن للدنيا أدنى وزن في نظرهم، خصوصا تلك الأجيال الأولى من الحكام والذين تشرفوا بصحبة الرسول سلى الله عليه وسلّم، ثم بالاحتكاك مع باقي كبار الصحابة إلا في بعض الاستثناءات.

ويمكن استخلاص النتيجة التالية، إنه كلما عدنا واقتربنا من عهد الرسول صلى الله عليه وسلّم كانت العلاقة بالدِّين قوية ودرجة ' الترمومتر ' أعلى، وكلما باعدنا عن هذه الفترة الربانية نقصت علاقة البشر بخالقهم وخَلَتْ نفوس الناس وأفئدتهم من تلك الروح الإلهية الهادية، فيغيب الرشد ويحل الجهل. وفي هذا الباب نذكر ما يرويه ابن خلدون: " عن رجل سأل عليا رضي الله عنه: ما بالُ (الناس) اختلفوا عليك، ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر؟ فقال: لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي، وأنا اليوم والٍ على مثلك"[29].

---

[27]- المرجع نفسه، ص 265.

[28]- محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 1983، ص 292.

[29]- ابن خلدون، المقدمة، ج 1، مرجع سابق، ص 266.

والمثال بالمثال يُذكر، قيل أيضا أن رجلا قدِم لعثمان بن عفان رضي الله عنه وقال له: يا أمير المؤمنين، ما بال حُكمك؟ فقد كنا في حكم عمر، يؤتى بالمريض فيضع يده على جبينه ويقرأ الفاتحة ، فيُشفى المريض. فقال له عثمان: ها هو المريض وها هي الفاتحة، فأين عمر؟ ! يُشير المثال هنا إلى ضرورة إصلاح قلوب الناس لينصلح بذلك شأن دينهم ودنياهم.

صفين وآثار التحكيم:

قلنا في ما مضى، أن هناك أحداثا وقعت في خلافة عثمان بن عفان: تسامحه مع أقاربه، وتوليهم مناصب إدارية وسياسية هامة، أثار غضب بعض الأطراف، مما أدى لتعالي أصوات الرفض والإنكار ،ثم انتقلت تلك الأطراف من مجرد النقد والتجريح، لاستعمال العنف والسلاح أفضى لمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه مع نهاية عام 35 ه.

بعد تولي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الحكم، قلنا كذلك، تواصلت تلك الأحداث وعمّت الفوضى والاضطرابات، إلى أن نشبت معارك فيما بين المسلمين، مرتين، الجمل، وصفين. وكانت صفين بين:

الخليفة الحاكم آنذاك علي بن أبي طالب وباقي المسلمين من جهة، ومن جهة ثانية معاوية بن أبي سفيان وكان حينها واليا على سوريا يأتمر بالخليفة وأنصاره من بني عمومته (بنو أمية) آل المقتول عثمان بن عفان، وسبب المعركة والخلاف: المطالبة بالانتقام لقتيلهم، لكن بعد مدة من الاقتتال كاد الأمر يُحسم لطرف الخليفة علي، وعندما أدرك الطرف الثاني أن الهلاك مصيرهم، أشار داهية العرب عمرو بن العاص، على رئيسه وحليفه معاوية أن يطالبوا بتوقيف المعركة والرجوع لكتاب الله ليحكم ويفصل بينهم، فقدِموا إلى معقل الخليفة علي، وهم يضعون المصاحف (القرآن الكريم) على رؤوس السيوف وهم يتلون قوله تعالى : " **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ**

أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ"[30]. بمعنى أنهم يُريدون الحل السلمي لا العسكري.

فكانت الحيلة ذكيةً، ولم يكن أمام الخليفة سوى القبول بها، أي بترك السلاح واللجوء والرجوع إلى **كتاب الله ليحكم** ويقضي بينهم، حقنا لدماء المسلمين الذين تعهّد بحمايتها، وخوفا من أن يُسأل عنها يوم القيامة، وهو المسؤول الأول عن الجميع (أتباعه وخصومه).

وهنا ينبغي من كلمة:" لقد سُئِل علي رصي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين، فقال:(والذي نفسي بيده لا يموتنَّ أحد من هؤلاء وقلبه نقي إلا أدخله الله الجنة) يشير إلى الفريقين، نقله الطبري وغيره. فلا يقعنَّ عندك ريب في عدالة أحد منهم ولا قدح في شيء من ذلك، فهُم مَنْ علِمت، وأقوالهم وأفعالهم إنما هي على المستندات، وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السُّنة. "[31]

لكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟.

1ـ رفضت طائفةٌ من "خاصةِ وأتباع علي المتشددين أمرَ التحكيم إلى القرآن الكريم، وتوقيف الحرب ضد الخارجين عن الدين – في نظرهم- وطالبت بمواصلة المعركة ضد معاوية وأتباعه إلى إبادتهم، لأنهم خرجوا عن طاعة أمير المؤمنين، فرفضت ما قبِل به الأمير، واعتبرت أنه ليس من حقه توقيف الحرب ضد المتمردين، فكفّرت هذه الفرقة كلاً من علي لأنه أوقف الحرب، ومعاوية لأنه حارب الخليفة وسُميت **بالخوارج** بشعار: الحكم لله لا للرجال"[32].

ونادت أن تكون الخلافة في غير قريش، وهي مِن حق أيٍ كان من المسلمين شريطة الاستقامة، وإن غيّر الخليفة أو الإمام وبدّل، وجَب عزله، أو قتله، ويجب أن تبقى عن طريق الشورى كما تركها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

---

[30]- سورة آل عمران، الآية:23.

[31]- المرجع السابق، ص269.

[32]- محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص 272.

2ـ فيما أبقت فرقة أخرى على حُبها ومناصرتها للخليفة وتأييده في قراره وهي **الشيعة.** وهم مَن يعتقدون أن علي بن أبي طالب وأولاده من بعده هم وحدهم أحق بالخلافة، يتولونها بالوراثة، وتَمنحُ الشيعةُ الخليفةَ مميزاتٍ دينية فريدة، فهو وحده المؤهل لفهم الدين، ولقّبته ب(الإمام).

كما " تؤمن الشيعة بأن الإمامة (الخلافة) ليست قضية مصلحية تُناط باختيار العامة، ويُنصّب بتنصيبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين لا يجوز للرسول عليه الصلاة السلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، ويُجمع القوم بوجوب التعيين والتخصيص، وبوجوب عصمة الأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر"[33].

ومعنى الكلام أن الخلافة لا توكل لأيٍ كان بل لأناس مُعينون، ويقصِدون أبناء علي، وما كان للنبي صلى الله عليه وسلّم أن يُهملها، أي كما فعل عليه الصلاة والسلام دون أن يُعين خليفته، ولا تُترك لعامة المسلمين، بل يُعيَنون مِن أبناء علي وأحفاده، ويجب اعتبارهم معصومين عن الخطإ.

3ـ رفضت فرقة ثالثة الحكم على المتخاصمين علي ومعاوية وأتباعهما، وتركت الحكم عليهم لله تعالى يوم القيامة، فسُميت **بالمُرجئة.**

4ـ فرقة أخرى لم تقبل الدخول في هذه المُعضلة: أي هل يُكفّر أمير المؤمنين بتوقيفه الحرب؟، وما حكم الخارجين عنه معاوية وأتباعه؟ فآثرت هذه الفرقة الابتعاد عن الفِتن السياسية والدينية والتفرغ في مقابل ذلك للعبادة والتقرب إلى الله، فسُميت **بالمُعتزلة.**

وترى في قضية الخلافة:" الإمامة اختيار من الأمة، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه، وأن اختيار ذلك مُفوضٌ إلى الأمة تختار رجلا منها، يُنفِّذ فيها أحكامه، سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة

[33]- علي حسن الخربوطلي، الحضارة العربية الإسلامية ،مكتبة الخانجي،القاهرة، ط 2 ، 1994،ص14.

والإيمان. ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره. وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك "[34].

تنبيه:

ليست هذه الفِرقة (مُعتزلةُالفِتنْ) هي ذاتها بمعتزلة واصل بن عطاء الكلامية.

الدليل: هذه الفرقة اعتزلت الفتنة، فِتنة صفين وهذا عام 38 ه، أما واصل بن عطاء، مؤسس المعتزلة الكلامية فقد وُلِد عام80 ه.

ـ يقول أبو حاتم الرازي(ت322 ه)- كتاب الزينة(ضمن كتاب: الغلو والفرق الغالية، لعبد الله السامرائي، ط بغداد1972 م ص 273):" أول ما وقع اسم الاعتزال أيام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حين اعتزل عنه جماعة مثل سعد بن مالك وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة الأنصاري وأسامة بن زيد بن الحارث...ثم بعد ذلك الأحنف بن قيس وغيرهم فسموا المعتزلة "[35].

ـ ويُوردُ الحسن النوبختي (ت310 ه) – في كتابه : فِرق الشيعة(مطبعة الدولة، استانبول 1931 م ص5):" وفرقة منهم اعتزلت مع سعد بن مالك وهو سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن سلمة الأنصاري وأسامة بن زيد بن حارث، فإن هؤلاء اعتزلوا عن علي رضي الله عنه وامتنعوا من محاربته والمحاربة معه بعد دخولهم في بيعته والرضاء له فسموا المعتزلة "[36].

ـ كما يُورد أبو الحسن الملطي(ت377 ه)- في كتابه :التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (ط مكتبة المثنى والمعارف، بغداد، 1968م ص36)النص ذاته تقريبا: " عندما بايع الحسن بن علي رضي الله عنه معاوية، وسلّمَ إليه الأمر، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس وذلك أنهم كانوا من أصحاب علي ولزموا منازلهم ومساجدهم، وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك المعتزلة"[37].

---

[34]- المرجع نفسه، ص 17.
[35]- علي الشابي، أبو لبابة حسين، المعتزلة بين الفكر والعمل، الشركة التونسية للتوزيع، د ط، 1979 ص21.
[36]- المرجع نفسه، ص 22.
[37]- المرجع نفسه، ص 22.

إذن هناك فَرقٌ بين معتزلة الفِتَنْ والصراعات السياسية التي بدأت مع الفتنة الكبرى، وتسببت في تفريق المسلمين إلى عديد الفِرق يتساءلون عن تصرفات الصحابة: مَنْ منهم على صواب؟ ومَنْ المخطئ منهم؟. وفي الحقيقة لم تكن تصرفاتهم لِدُنيا يُصيبونها، وإنما كان غرضهم الإصلاح، فاجتهد كل منهم، والمخطئ فيهم مُصيب وله أجر الاجتهاد، ولا يسعُنا في هذا المقام إلا أن نقول:" **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُوْنَ عَمَّا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ** "[38]، وبين معتزلة واصل بن عطاء.

وانطلاقا من تلك الفِرق ذات الطابع الديني السياسي والاجتماعي التي كانت تسأل عن المُسلم المُرتكِبْ للكبيرة، أخذ النقاش يتعمّق ويتنوع حتى صار موضوعه أفعال الإنسان: هل هي صادرةٌ عن إرادة فاعلها وحريته، أم هي قضاءٌ وقدرٌ محتوم على الفاعل؟ وهل الإنسان حرٌ في تصرفاته؟ أم مقيدٌ وخاضع لقوة أكبر منه؟ وإذا كان الإنسان حرا في أفعاله، ألا يُنقص ذلك مِن قدرة الله جل وعلا؟ وهل وردت في القرآن الكريم آياتٌ تُثبتُ إرادة الإنسان؟ أم آيات تثبت خضوعه لإرادة الله؟ وهل الآيات القرآنية في مجموعها منسجمةٌ وتفيد المعنى الظاهري أم تحتاج للتأويل؟.

لأجل ذلك كلِه ظهر علم جديد لدى المسلمين هو: **علم الكلام**،وسُميَ كذلك لأنه يتكلّم في قضايا لأول مرة، لم يألفها المسلمون، وأهمُّ قضية فيه هي كلام الله أي القرآن الكريم، فسُمي بها.

ومِنْ أشهر الفِرق الكلامية وأعمقها فكرا: المعتزلة ثم انشقت عنها الأشاعرة.

المُعتزِلَةُ وأصلُ التسمِية:

هناك نص مشهور للشهرستاني في كتابه المِلْ والنِحلْ عن أصل نشوء المعتزلة يقول فيه:" دخل رجل على أبي الحسن البصري وهو في المسجد يُدرِّس، فقال له: يا إمام الدين ! لقد ظهرت في زماننا جماعة يُكفِّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كُفرٌ

[38]- سورة البقرة، الآية:134.

يُخرجُ به عن الملة، وهُم وعيدية **الخوارج**، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضُرُّ مع الإيمان، ولا يضُرُّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهُم **مُرجئة** الأمة، فكيف تحكُمُ لنا في ذلك اعتقادا؟. فتفكّر الحسن في ذلك. وقبل أن يُجِيب، قال **واصل بن عطاء**: أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمنٌ مطلقا، ولا كافرٌ مطلقا، بل هو في **منزلة بين المنزلتين**، لامؤمن ولا كافر. ثم قام **واعتزل** إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد، يُقرر ما أجاب به على جماعة مِن أصحاب الحسن. فقال الحسن: اعتزل عنا واصل. فسُمي هو وأصحابه **معتزلة** "[39].

المؤسس الرسمي: واصل بن عطاء، وُلد عام 80 - 131 ه، ثم استمرت مع شيوخ آخرين مثل القاضي عبد الجبار، أبو الهذيل العلاف، النّظام، أبي علي الجبائي وغيرهم.

لا يهمنا في هذا المقام إن كانت المعتزلة كفِرقة (علمية)، ترجع لحركة واصل بن عطاء الفردية وتغييره مكانه من المسجد، أم أنها فرقة كانت أفكارها تتبلور شيئا فشيئا وتتطور تبعا لتطور الأحداث حتى جاء ابن عطاء فصاغ أُسسها؟، بل يهمُنا التعرف إلى مبادئها الخمسة، ومنهجها.

ـ **مبدأ التوحيد**: عمِلت المعتزلة على تثبيت مبدأ وحدانية الله، فأكدت تفرده بوحدانيته وصفاته، وأوجدت منهج التأويل العقلي للنصوص القرآنية.

ـ **مبدأ العدل**: اعتبرت المعتزلة الله تعالى عادل مع عباده، لذلك قررت أنه تعالى ترك عباده أحرارا في تصرفاتهم، حتى يسألهم عنها يوم القيامة، وهذا هو العدل.

ـ **مبدأ الوعد و الوعيد**: انطلقت المعتزلة من مبدأ منطقي، وقالت إن الله وَعدَ المُتقين بالثواب والجنة، فيما توعّد العصاة بالعقاب والنار، لكنهم بالغوا عندما ألزموا الله تعالى بتنفيذ وعده ووعيده، وأنه ليس من حقه تعالى أن يخالف وعده.

---

[39]- حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، بيروت، ج 2، ط4، 1978،ص637.

ـ **مبدأ المنزلة بين المنزلتين**: اعتبرت المعتزلةُ المؤمنَ المرتكبِ للكبيرة في مرتبة بين الايمان والكفر، هي الفسق، فإن تاب وأصلح عاد والتَحَقَ بالإيمان، وإن ألحَّ عليها سقط في الكفر.

ـ **مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكِر**: اعتبرت المعتزلة أنها – وكذا كل مسلمٍ- مسؤولة عن هذا الأمر.

ـ **المساهمة السياسية للمعتزلة**:

- إن المساهمة السياسية للمعتزلة فرضها مبدأهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، "لأن تطبيق هذا المبدإ لئن كان أكيدا على المستوى الفردي في تصرفاتهم الشخصية، فإنه يصبح أمرا أوكد على مستوى التصرفات التي بها تدبّر أمور المسلمين عامة وتدار شؤونهم، وتحفظ مصالحهم باعتبار أن حصول المنكر في هذا المجال يكون ضرره أوسع وأعم من حصوله في النطاق الفردي." [40]

- ترى المعتزلة أن تعيين الحاكم في الإسلام ينبغي أن يظل وِفقَ مبدأ الشورى والاختيار الحرّ كما تركها الرسول صلى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدون من بعده، وبشأن انتقال الحكم إلى بني أمية، فإنهم يرونه غير مشروع لأنه صار بالقوة ومِن بعدُ بالوراثة، ومن أجل تبرير هذا الأمر وإضفاء المشروعية عليه، نادى حكام بني أمية بالجبر(أي بالقول أن تصرفات العباد كلها مفروضة مِن قِبَلِ الله تعالى عليهم، وأنهم لا يملكون من الأمر شيئا، وهذا عكس ما قالت به المعتزلة).ويُستثنى من هذا الحُكم بعض حكام بني أمية وملوكهم مثل عمر بن عبد العزيز.

- تطبيقا لمبدإ الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر مارس المعتزلة نصيحة الحكام وإرشادهم إلى الحق، وتبصيرهم بمواطن الخطإ الذي يقعون فيه أثناء تسيير شؤون الأمة. "وقد استطاعوا أن يُعدِّلوا سيرة بعض الخلفاء، وأن يستميلوا بعضا منهم إلى مذهبهم الاعتزالي. ومن الذين استمالوهم من الأمويين مروان بن محمد(ت 132ه) آخر ملوك بني أمية الذي أصبح يعتنق الاعتزال. "[41]

---

[40]- علي الشابي، أبو لبابة حسين، المعتزلة بين الفكر والعمل، مرجع سابق، ص 58.

[41]- المرجع السابق، ص 64.

- كما أن مِن مبادئ المعتزلة السياسية أن الإمام إنْ جَارَ ولم تُجْدِ معه النصيحة، فإنه يجب على الناس الخروج عليه إذا توفر لهم الإمكان والقدرة.

ـ منهج المعتزلة:

كان مبدأ المعتزلة ومنهجهم: العقل والتأويل العقلي للنصوص التي لا تتفق مع موقفهم، وشعارهم :" **نتعقل أولا ثم نؤمن بعد ذلك** " واعتبروا أن الشريعة وتفاصيلها تُدرك بالعقل وحده، كما كانوا يقولون أيضا:(**العقل وحده قَبل وُرُود السَمْع**). وهذا يعني لديهم أن الإنسان بعقله يُمكنه أن يهتدي لِما جاء في الشرع، وأن أي أمرٍ أو مسألة تُطرح على المُسلم، فعليه أن يعرضها على العقل أولا، فهو يهديه، وإنْ تعارضت النصوص القرآنية مع مواقفهم، فلا بُدَّ مِن تأويلها لِتتّفق مع تلك المواقف. كما أن مِن أقوالهم أن الله يتصرف في صالح الإنسان وفي مصلحته.

ـ تعقيب:

لكن المعتزلة بالغت كثيرا في قناعاتها ومبادئها، ومن ذلك مثلا:

- فهي كما تعتقد أن الإنسان يخضع لمنطق معين يُسيِّره، ولا ينبغي عليه أن يُغيره بعد أن قبِلهُ، فإنها تُلزم الذات الإلهية بنفس المنطق الذي أعلن عنه: فقد وعدَ بالجنة للمتقين وبالنار للعصاة، فلا يحق له – في نظرهم – أن يُغيِّرَ حكمه. وهذا مُحال، فالله عزّ وجلّ خلق العباد وأمرَهم، ونهاهم، لكنه إن شاء عذّب العصاة، وإن شاء غفرَ لهم، يقول الله تعالى في كتابه العزيز:" **إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.** " [42]

- تعتقد المعتزلة بأن الشريعة تُدركُ بالعقل وحده، ولو كان الأمر كذلك فَلِمَ بَعث الله الأنبياء والرسل؟ كما أن للعقل البشري حدود لا يتجاوزها، وأمور لا يُدركها، وإليك الدليل:

يُخبرنا القرآن الكريم، بالنسبة لمريم ابنة عمران، أن الله تعالى كان يرزقها خلال فترة تَعبُدها مع أنها قادرةٌ على العمل والاجتهاد، يقول تعالى:"**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَاءُ**

[42]- سورة المائدة، الآية:119.

اَلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِيمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اَللَّهِ إِنَّ اَللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ "[43]، بينما عندما وَضعتْ حَملها، وصارت عاجزة عن الجهد والعمل، طلب منها اللهُ تعالى أن تجتهد لِتَقتاتَ، يقول تعالى: " **وَهُزِّيْ إِلَيْكِ بِجِذْعِ اَلنَّخْلَةِ تَسَّقَطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًا.**"[44] فلو صحّت نظرة المعتزلة مِن أن الشريعةَ تُدرك بالعقل، لَكانت الآية الأولى(الرزق بلا جهد) تكون للحالة الثانية، حالة وضع المولود، والآية الثانية (الجهد للرزق) تكون للحالة الأولى، حالة القدرة والتعبد، لكنَّ الله أعلى وأعلم.

مغالاة المعتزلة ونشأة الأشاعرة:

قلنا كذلك أن من أفكار المعتزلة قولها أن الله يسير بالعباد إلى الصلاح، وأن إرادته مقصورة على إرادة الخير، وهنا قامت مُناظرةٌ بين أحد شيوخ المعتزلة وهو أبو علي الجبائي المتوفي عام 303 ه، وبين أحد تلامذته، أبي الحسن الأشعري، وكان حينها معتزليا، فسأل التلميذ معلمه في مناظرة تُشبه تلك التي قامت بين الحسن البصري وواصل بن عطاء:

"قال التلميذ لمعلمه: ما حال ثلاثة إخوة في الحياة الأخرى، مات أحدهم على الإيمان والثاني على الفسق والثالث قبل سِنِّ الرشد؟. فيُجيب المعلم المعتزلي: الصالح في الدرجات(أي النعيم) والفاسق في الدركات (أي الجحيم) أما الثالث ففي منزلة بين المنزلتين. عندها سأل الأشعري الجبائي: فلو أراد الأخ الثالث أن يلحق بأخيه الأول في النعيم. فماذا يُقال له؟ يُجيب الجبائي: لا يُؤذن له، لأن الأخ الأول لحِق بالنعيم بسبب طاعته. فيقول الأشعري: فإذا اعترض الأخ الثالث بقوله للباري: لو أبقيتني لاخترتُ حياة البِّر والتقوى؟ فاستحققت النعيم، فبماذا يُجيب الباري؟ يقول الباري، بحسب رد الجبائي: كُنتُ أعلم أنك لو بقيتَ لعصيتَ فراعيتُ مصلحتكَ؟ وكفيتُك عذاب الجحيم المُقيمِ. عندها يعترض الأشعري: فلو نادى الأخ

---

[43]- سورة آل عمران، الآية:37.

[44]- سورة مريم، الآية:25.

الفاسق قائلا: لقد علِمتَ حالي يا ربِ، فلِمَ لم ترعَ مصلحتي أيضا فماذا يكون الجواب"[45]؟ ! .

يقال أنَّ الأشعري، مِن حينها، غادر وترك دروس المعتزلةِ، وأنشأ لنفسه فِرقة كلامية في مستوى التي انسلخ منها، ورفض ذلك الاستعمال المُفرط للعقل، والمكانة التي احتلها عند خصومه، ووضعه في الموضع الذي يليق به، واعتبر الأشعري أن العقل قوة هادية لصاحبها إن اهتدى صاحبها بنور الله.

الخاتمة:

هذه المناظرات العلمية تدل على أن المسلمين – ومنذ القرن الهجري الأول- بلغوا درجة تؤهلهم لمناقشة قضايا فكرية غاية في التعقيد، وتسمح لهم بالاحتكاك مع الشعوب المجاورة لهم والاطلاع على ما لديهم من قضايا ثقافية.وبالفعل يعد علم الكلام من إبداعات المسلمين العقلية التي لم يسبقهم إليها أحد، وما كاد القرن الهجري الأول والثاني يمضيان حتى وضعت الأمة الإسلامية أول قدمٍ لها في الاتجاه الصحيح، اتجاه العلم والمعرفة. هذه الخطوة الأولى هي ما أسسه الخليفة العباسي هارون الرشيد لبيت الحكمة، ثم جاءت إضافة ولده المأمون وتشجيعه لحركة الترجمة العلمية، فتوفرت أمَّاتُ الكُتبِ في شتى فنون العلم والمعرفة، ليظهر أول جيل مِن القُرَّاء العرب والمسلمين، فيصيروا فلاسفة وعلماء أمثال الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد وغيرهم في الفلسفة، وتوجد أسماء أخرى أشهر وألمع في شتى أصناف العلوم والمعرفة، فحصَّلوا على تراث اليونان وعلومهم في شكل مبادئ عامة نظرية، ففصَّلوها ونقلوها إلى تطبيقات الواقع ومنها وصلوا إلى مراتب عالية جعلت شمسهم تسطع على الغرب.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

[45]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، أورده: ماجد فخري، مختصر تاريخ الفلسفة العربية، دار الشورى، د ط،1981، ص 94.

أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ط 3، 1997.
بشير رمضان التليسي، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار المدار الإسلامي، طرابلس، ط2، 2004.
ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة، بيروت، ج9، 1956.
الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية،مطبعة البابي ،مصر،ط 1973،3.
ابن خلدون،المقدمة، الدار التونسية للنشر- المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج1 ،1984.
شوقي أبو خليل ونزار أباضة،لوحات مضيئة في الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر ،دمشق ،2007.
صالح فركوس، تاريخ النظم القانونية والإسلامية،دار العلوم، عنابة، د ط،2001.
محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 1983.
علي حسن الخربوطلي، الحضارة العربية الإسلامية،مكتبة الخانجي،القاهرة، ط 2، 1994.
علي الشابي، أبو لبابة حسين، المعتزلة بين الفكر والعمل، الشركة التونسية للتوزيع، د ط، 1979.
حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، بيروت، ج 2، ط4، 1978.
ابن خلكان ، وفيات الأعيان، أورده: ماجد نخري، مختصر تاريخ الفلسفة العربية، دار الشورى، د ط ،1981.